موسم العجائب

انطلق (مطاوع طبّل) لبنان في الشهر الماضي بالثرثرة الطنانة الرنانة بأعاجيب القديس «شربل» أو شاربل الذي مات منذ نصف قرن ثم ظهرت من قبره نبعة لم تكن معروفة من قبل . فلما فتحوا القبر وهو في الكنيسة أو عند الكنيسة على قول آخرين ، ظهرت جثة القديس ولمّا يتعفن فيها البلى بعد . وما لبث المشاهدون أن رأوا الجثة تنضح عرقاً حتى يبتلّ كفنه وثوبه . وأحياناً كان يظهر العرق ، ممتزجاً بدم . وكانوا يغيرون قميصه مرتين أو ثلاثاً في اليوم ، ولا يزال يعرق وينضح دماً من حين إلى آخر . هذا مجمل الرواية عن جثة هذا القديس بعد نصف قرن من وفاته — شيء عجيب .

ومن لا يسرع لكي يرى جثة هذا القديس وهي لا تزال كما فارقتها روحه منذ خمسين سنة ، ومن يرى هذه الأعجوبة ولا يقول أن شربل هذا الذي كان راهباً وكاهناً قديس عجائبيّ . وكيف لا يكون عجيباً أمره ودمه لا يزال حيّاً يسيل أحمر قانياً كما كان منذ خمسين سنة قبل أن يموت . أجل انه عجيب وعجيب — كذا تدفقت الروايات عنه في لبنان وسوريا ومصر والعراق إلى كل بلد يسمع الأشاعات باللغة العربية .

ولماذا لا يقال أن الراهب أو القسيس شربل هذا كان قديساً في حياته المطوقة بقصص التقوى وحولها هالة من القداسة . ولماذا لا يقال انه قديس لا يذعن لسنن الطبيعة ، بل سنن الطبيعة تخضع له وتأتمر بأمره وتفعل ما توحي جثته لها ناهيك عمّا يشفيه عرقه من الأمراض وما يمحوه دمه من الأدران وما يغسله من الخطايا والآثام .

فلذلك جعل كثير من المصابين بالأمراض العقامة والمشوّهي الأبدان يتوافدون اليه للتبرك والاستشفاء . توافدوا من جميع نواحي لبنان حتى من سوريا ومصر والسودان . والتقط في سوريا ولبنان حتى في بيروت على قدم وساق ، التقط بما فعل شربل القديس

من المعجزات فذاك كان أعمى فأبصر، وذاك كان أصم فسمع، وهذاك كان أحدب فاعتدل، وهناك كانت إحدى رجليه أقصر من الأخرى فطالت حتى ساوتها. وذاك كان مبدوراً فطاب، وتلك كانت عاقراً فاذا بها حامل، إلى غير ذلك من الأقاويل العجيبة المدهشة.

وأغرب عجائب هذا القديس أن شيخاً يدعى يوسف حنون قضى حياته يعمل اسكافاً، وكان سيم الخلقة، وقد وهن عظمه، واشتعل رأسه شيباً، إذ بلغ من العمر عتيّاً. يقال انه الآن في الثانين ولكنه لا يزال نشيطاً بعض النشاط ولم يتزوج، دخل الى مقام هذا الراهب وركع وكان يصلي، ويقول يا رب لماذا تحرمني حظي من شباب الحياة. امنحني نصيبي من شباب الحياة ومسراته. يا سيدي القديس شربل تشفع لي عند ربنا. الخ

وخرج الشيخ يوسف حنون فاذا هو معتدل القامة حالك الشعر، وقد اندمج لحم وجهه، وانصقل جلد خديه، وزالت كل تجعدات عياه. وصارت الفتيات يتغامزون عليه. وقال أحدهم: من هذا؟ أليس هذا ابن يوسف حنون؟ فقال آخر يوسف حنون لم يتزوج.

ومن يستطيع أن يكذب القائل وهو يقول لقد ذهبت بنفسي ورأيت بعيني. وأعرف فلاناً بعين عوراء وقد رأيته أخيراً بعينين كاللؤلؤ. وأعرف فلاناً كسيحاً وأخيراً رأيته يمشي أمامي ثم يركض معي. وأعرف فلاناً أعقد اللسان أو أبكم وإذا به اليوم يبز شيشرون في الخطابة. أجل لا يجسر أحد أن يقول أن هذه الأقوال المنقولة كلها أكاذيب، والذين يرونها رأوا بأعينهم وسمعوا بآذانهم. وان قلت إني لا أصدق ما لم أرَ بعيني. فيقولون لك اذهب الى ذلك المقام القدسي وانظر بعينيك.

قالوا إن الحكومة أوفدت لجنة من الأطباء ومعظمهم من أساتذة الطب الممتازين لكي يفحصوا الجثة ويحققوا ويشاهدوا العجائب بأعينهم وقيل عنها أن منهم الدكتور يوسف الحتي الأستاذ في الجامعة الأميركية، ومتى عادوا من التحقيق نشروا تقريرهم. وها نحن منتظرون نتيجة التحقيق.

أما أنا العبد الفقير نقولا الحدّاد لا أصدق أن الدكتور حتي العالم الكبير، ولا غيره من الأطباء يرضون أن يذهبوا الى مقام ذلك الوليّ لكي يحققوا في خرافة أو يعلنوا تقريراً في صحافة. ان علمهم يصدهم وفهمهم الآبية ترتفع عن سخافة كهذه.

ويظهر أن هذا الربيع ربيع العجائب، فقد وردت لنا من شوف لبنان أخبار معجزة لبست معجزات شربل أمامها شيئاً. وتحرير الخبر أن قرب دير المخلص قرية وفي السهل الذي تحتها كنيسة صغيرة (كابيلا) بناها مطران في ملك له هناك ثم دفن فيها منذ سبعين سنة. وفي ٢٥ من شهر مايو كل سنة يقدّس خوري القرية قداساً فيها تذكاراً لذلك المطران. وفي الميعاد الأخير فيما كان الخوري يقدّس وأهل القرية يسمعون القداس وإذا مياه انبثقت من أمام باب الكنيسة وجعلت تجري صعداً (لا نزولاً) حتى صادت تصب فوق في حديقة الى جنب كنيسة القرية الكبرى. وكان الناس مدهوشين من هذا الينبوع العجيب، وجرى مائه الى فوق. وذاقوا ماءه فاذا هو زلال. ثم جعلوا ينبشون ذلك القبر الذي في الكنيسة الصغرى. فما لبث النبع أن انقطع — واستمروا ينبشون حتى بلغوا الى مقرّ المطران، وإذا هو لا يزال جالساً على كرسيه كما أُجلس حين دفن (لأن العادة أن يدفنوا كبار الاكليروس جلوساً على كراسيّ) ولم يبلَ منه شيء. فعادوا وغطوه كما كان. فعاد النبع يجري جرياً ضئيلاً وصار الناس يستشفون بذلك الماء.

هذه أخبار أعجوبة المطران فلابيانوس. وهي أعجوبة تزاحم أعاجيب شربل وأعاجيب كبير الرسل.

ولكن هناك أعجوبة أعظم من عجائب القديس شربل وعجيبة للمطران فلابيانوس. وهي ان أهل لبنان الذين يتبجحون بأنهم أرقى البلاد العربية ثقافةً وعلماً وعندهم كلّيتان الطب وكليات أخرى فيه — يصدقون هذه الأخبار ويتداولونها ويذيعونها حتى ملأوا بها جرائد بيروت وسوريا والعراق ومصر الى سائر البلاد العربية. يتداولونها ولا يخجلون. أليس هذا عجباً؟ . وبعض جرائد مصر ومجلاتها تزعم أنها أوفدت من قبلها مراسلين يدرسون أعاجيب مار شربل. ولا تخجل هذه الجرائد أن تنشر تقارير لفقها مراسلوها استهواه لقراء وهي تعلم ان عامة الشعب يصدقون ما تنشره الصحافة حتى ولو كان ضلالاً وتضليلاً. وإذا قال لك القارىء: ياسيدي هذه أخبار حققتها الجريدة أو المجلة وأرسلت رسلاً أخصاء لتحقيقها أفتكذبها؟ فماذا تقول له؟

اقول أن كثيراً من ضلالنا وجهلنا وغباوتنا ناشيء عن جرعة صحافتنا في النشر من

غير تحقيق قانوني . وما اكسبه من الثقافة الحقة نخسره ونكسب أكثر منه الخرافات والترهات من ينجر اليها وعجلاتنا . فرفقاً بأقوم بناشئتنا التي تتلقف الآن على الاسس العلمية اليقينية، ورحمة بسمعتنا وشرفنا . أن يذاع عنا أننا منغمسون بهذه الترهات والخزعبلات لعارٌ علينا وعلى اولادنا وسوف يُعيِّر به جيلنا القادم

يا قومي — ان الله لما خلق هذه الاكوان جعل لها سنناً ونواميس أبدية تسير عليها . فمنذ نشأ الكون الاعظم حتى الساعة لم تحد أجزاؤه من هذه السنن قيد شعرة. ففي كل ٢٤ ساعة تدور الارض على نفسها دورة كاملة، فيأتي النهار في ميعاده والمغرب في حينه ، وتدور الارض حول الشمس كل عام مرة ، فيأتي كل فصل من فصول السنة في ميعاده . وهكذا دواليك. فلا يمكن أن يتخلف حادث عن ميعاده ثانية واحدة. وهكذا ينبت من حبة الحنطة سنابل قمح لا شعير، ويثمر التين تيناً والعنب عنباً . ولا ينبت من الموسج تين — يستحيل ان يتغير هذا النظام الذي سنه الله . ولا يمكن ان يخضع نظام الله لمشيئة القديس شربل، ولا يستطيع القديس شربل لا في حياته ولا روحه بعد مماته ان يغير شيئاً من سنن الله ولا أن ينقض قضاء الله، ولا يمكن الله ، ان ينقض حرفاً من ناموسه لأجل خاطر شربل . كذا سنٌ . وكذا يكون . ولا يستطيع كائن على الارض او في السماء او في الكواكب والنجوم أن يرد قضاء الله . أو يغير سنة الله في خلقه

فاذكروا ان تشركوا الموتى في قضاء الله . فهذا الاشراك اثم عظيم لا يغتفر

لا أظن شربل أقفر من سيدة لورد على عمل الخوارق . ومنذ بضع سنين أرسل معهد وكفلر بعثة من العلماء على اختلاف انواعهم الى باريس لكي يدرسوا حقيقة أعمال سيدة لورد . فذهبوا وحققوا وانكبوا على السجلات وقابلوا بعض الأشخاص الذين زُعم انهم شفوا على يد سيدة لورد فاذا ما قيل بشأنهم أولاً وآخراً افك . وثبت للبعثة ان سيدة لورد اداة نصب ، وان عملياتها خزعبلات.

ولا يخفى ان فرنسا تعتبر بلاد الثقافة العالية وفيها هذا الافك فلا بدع أن يكون لبنان نداً لها في الثقافة والافك وقد تتفق على يدها كما تعلمون